

تتشبث أسطورة « العصر الذهبي » بالعقلية العربية بعامة والعقلية المصرية بخاصة ، تشبثاً جعل وحداتها الجماعية مشدودة الى مؤخرة الموكب الانساني المتقدم ابداً الى الامام ؛ وكأننا كتب على هذه الوحدات ان تنظر دائماً الى ما وراءه ؛ واذا نظرت الى ما أمامه ، فانما هي النظرة الحافظة والانتفاضة العجلى تعبر عنها في خفوت لا يكاد يبين . والحياة عندها آخذة في الفساد ؛ والامتداد في الزمان يورث الضعف والهزال ويقرب من المصير المحتوم . فالحضارات القديمة التي نبتت على شواطئ النيل والفراتين ، اعظم بما جاء بعدها عند قوم ؛ والبداءة وما فطرت عليه من الظعن والاقامة ، اعظم من الاستقرار والتمدين عند قوم آخرين .

وسلطان هذه الاسطورة على الأدب العربي ، إنشاءً وتدوقاً وتأريخاً ، أقوى من سلطانها على اي شيء آخر . وكان من حق نهضتنا القومية ، أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ان تعتمد على هذه الاسطورة وان تسير منطق كل نهضة في إحياء التراث القديم ، وصلاً للحاضر بالماضي وتدعيماً لمكان الشعب العربي من الحياة ، وإبرازاً لمقومات شخصيته الأصيلة .

نحو أدب ديموقراطي

بقلم الدكتور عبد الحميد بونس

ولكن هذه النهضة ما لبثت ان جعلت هذا الاحياء غاية في ذاته ، فقصرت زاداها الوجداني ، او كادت ، عليه ؛ وأخضعت الحياة الحاضرة لمعاييره ، ونحلت ان أسسه الفلسفية والنفسية يمكن ان تصلح وحدها أساساً لوجودها ولم تكتف بذلك ، ولكنها انتخبت جانباً واحداً بذاته من جوانب التراث الأدبي ، هو مآثر الأدب الرسني .

ولا تظن انني أبالغ في نعته بالأدب الرسني ، فالواقع ان هذا الأدب ، بدويّاً كان او حضرياً ، شامياً كان او عرافياً ، إنما هو أدب الطبقة الحاكمة يمكن لسلطانها المعتمد على العصبية او القائم على الغلب ، ويرفه عن الحكام وأقباهم ويتحدث عنهم ولا يكاد يتحدث عن أصحابه الذين انشأوه . ولو ان أحداً من الدارسين تصدى للتفسير الاجتماعي لهذا الأدب ، لوجد ان القرائن على ما نقول أكثر من ان يحصيها العد أو تنفع فيها الاشارة ، على الرغم من القطيعة الكبرى بينه وبين قائله في الغالب الأعم . وتاريخه يسير تطور الحكم فحسب من مشيخة القبيلة الى الملك ، وكلاهما يعتمد على الوراثة التي تتسم بتعظيم الاصل القديم

الأدب

مجلة شهرية تعنى بسؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

اصحاب الامتياز

منير البعلبكي ؛ سهيل ادريس ؛ بهيج عثمان

AL-ADĀB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

هيئة التحرير

(حسب الاحرف الهجائية)

احمد سليمان الأحمد	قديري حافظ طوقان
علي أدهم	عبد الله عبد الدائم
ذو النون ايوب	مارون عبود
خليل تقي الدين	ابراهيم العريض
جورج حنا	عبدالله الملايبي
شاكر خصباك	توفيق يوسف عواد
رئيف خوري	نبيه امين فارس
عبد العزيز الدوري	شكري فيصل
قسطنطين زريق	نزار قباني
احمد زكي	صباح محي الدين
نقولا زيادة	انور المعباوي
وداد سكاكيني	نازك الملائكة
فؤاد الشايب	عبد الحميد بونس

والمحافظة عليه . وانت تجد هذا التعظيم للأصل وتلك المحافظة عليه طابع الأدب الرسمي كله تقريباً .

ولست أريد ان أزج بك في تعويضات الدراسات النفسية لأبين لك خطر الاكتفاء بهذا التراث الرسمي في حياتنا ، وحسبك ان تعلم انه يجعل التفنن وفقاً على المتعلمين ويجعل مقياس الاجادة فيه ، استدعاء الصور القديمة والتجارب الماضية . ولم لا ؟ .. أليس الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ؟ .. ألا يتعلم الناس في مدارسنا ان الأدب لا موضوع له ، وانه حرفة قد تكون شؤماً على صاحبها ؟ .. وان التأهل له إنما يقوم بكثرة الحفظ لآثار بأعيانها ، والتدرب المستمر على محادثتها ! . والطالب الذي يدخل المدرسة عندنا تنعكس في نفسه صور ذلك التراث الرسمي وتلون مثله في الحياة وتكاد ترسم له معالم السلوك . وإن كنت في ريب مما أقول ، فاقراً يا اخي ما وجه في الامتحان العام منذ أيام قلائل الى طلاب التوجيهية ، اي طلاب الصف المجيزين لدخول الجامعة ؛ إنهم لا يزالون يسألون عن المدح في الشعر وتأثيره في خلق الأمة . أليس المدح في جملة وتفصيله صدى للفتاق الصارخ في مجتمع يستبد به حاكم مطلق يقسم الارزاق على الناس حسب مشيئته ورضاه ؟ .. وما علاقة ذلك المدح المأثور في الأدب الرسمي ، وأعظم صورته المتنبئ ، في مجتمعاتنا الديموقراطية او النزاعة الى الديموقراطية ؟ وعندما أرادت نهضتنا الأخيرة ان تستحدث في الأدب تجديداً أو ما يشبه التجديد ، أنشأت آثاراً نستطيع ان نصفها بالأدب الكلاسي الجديد . وما نجد ان نجيل مع هؤلاء الذين يريدون ان يجعلوا الأدب العربي مخالفاً في التطور والصورة لغيره من آداب الامم والشعوب ، فان مثل هذا المنهج يفر من مواجهة المشكلة ولا يحلها ، ذلك لان اصحابه يحكمون على الأمة العربية بأنها نسيج وحدها في الوجود والامتداد وان النواميس التي تخضع لها مغايرة للنواميس التي تخضع لها سائر الاقوام . فأنت ترى ان العقل اساس هذا الأدب وضابطه . وهذا شاعر النهضة الأول « شوقي » يتكلم على العقل في انشائه حتى لتبدو قصائده أقرب الاشياء الى الاشكال الهندسية المنتظمة ، ركبت بحساب دقيق ومنطق مضبوط . وحدثت المزاجية الطبيعية التي لم يكن منها مفر بين الاحتكام الى العقل واحتذاء القدماء . فان اسطورة العصر الذهبي وسوست الى العقول بان القدماء هم وحدهم الذين استطاعوا الاصابة في

الانشاء والتفنن . وهذا اعتراف آخر بان منهج الفن كمنهج الرياضيات ، يخضع للخطأ والصواب . وطريقه السوي واحد لا ينحرف أو يجيد ، وهو الطريق الذي سلكه القدماء . والتفسير الاجتماعي لهذه الكلاسي الجديدة في الأدب العربي ، إنما هو النزوع القومي المتكامل حول نواة الحاكم . وقد كانت المجتمع العربي يشبه في ذلك القوميات الاوربية عند اول ظهورها في التاريخ الحديث . فان هذه القوميات نهضت بالسلطان المطلق لفرد يعتمد في وجوده وحكمه وخضوع الناس له على تفويض إلهي أو ارومة غازية . وما يتسم به الأدب الكلاسي في جميع عهوده من المناسبة بين الاجزاء والاشكال ، صدى طبيعي لما تتطلبه الحكومة المطلقة في المجتمع من إيثار التوازن والاعتدال ، كما ان غلبة القواعد الحرفية على الأدب وقيامها منه مقام العرف المرعي في الاخلاق . تدل على إيثار الواجب والتسليم بالتقاليد والخضوع لأحكام السلطان المستند الى حق غيبي أو تاريخي .

ولم يغير الاستعمار الاوربي للعالم العربي من هذه الصورة العامة ولكنه أعان عليها وتوسع فيها ، وأغلب الظن انه أدرك بفلسفته المكيافيلية ، ان يعوق التطور ما استطاع ، فتوسل الى حكم الشعب بحكم ملوكه وامرائه ، وشجع الأدب الذي يعين على بقاء هذا النظام وثباته ، ثم خلق الطبقة الادارية المنسلخة عن بيئتها الانسلاخ كله ، لتتركز عليها قمة الهرم التي اقامها وسندها . وتم للمستعمرين بذلك ، الطمأنينة الى استغراق الشعب العربي في أحلام الماضي واجتراره لأسطورة العصر الذهبي وتجنيده الملكات للحاكم وأعوانه ، والاحتفال بالعقل على حساب الوجدان ، والاهتمام بالشكل والتناسب ، وما الى ذلك من تتبع العلاقات بين الجزء والجزء أو الكل . وإذا صح ذلك على الانشاء الأدبي ، فانه يصح على التدقيق والنقد.

بيد ان الحياة مها عوقت ومهما وضع في طريقها من الحواجز والعراقيل ، فانها لا تجمد ولا تتوقف . ومن هنا نفذت خلال النوافذ المغلقة والأستار المسدولة ومضات من النور الخاطف غير المستبقر ، ترهص بالتحول وتتنبأ بالتطور ، فكانت الثورة الرومانسية التي حاولت ان ترد الأدب الى نفوس اصحابه ومنشئيه ، وان تخلصه من الصناعات الحرفية والاتباعية العقلية . وهكذا بدأت تبرز شخصية الأديب . وكان بروزها معاملاً واضحاً من معالم التطور . ولكنها كانت شخصية فردية وقت

عند ذاتها لا تتعداها واعتبرتها بلورة خاصة قائمة برأسها لا علاقة لها بغيرها . وكأنا أصبح كل اديب من هؤلاء الأدياء الرومانسيين يرى نفسه مركز الكون ومعيار الحقيقة ، يكبر من ملامه ، ويبدىء ويعيد في تصوير ملذاته ، أو يجتر آلامه وأحزانه ، ويرفع نفسه عن الحياة في برج عاجي أو يعتزل الناس بليل تحت مصباح اخضر . ونحن نعتز بان هذه الرومانسية كانت خطوة جريئة الى الأمام لا تقاس اليها خطوة اخرى ونعتز كذلك بانها كانت تمثل النزوع الى الديموقراطية ، لان الاعتراف بالفرد مناط النظر الديموقراطي . وهو يبين فناءه في غيره أياً كان هذا الفناء . ويجعل منه مثلاً لحكومته او مركزاً لهذه الحكومة ، تتبع منه وتصب فيه . وقصاراها ان تنسق بحالات النشاط لهؤلاء الافراد المتساوين في الحقوق والواجبات . وعلى الرغم من هذا كله انحصرت الحركة الرومانسية انحصاراً يكاد يجعلها جزيرة محدودة بالكلاسية من جميع جهاتها ، لأن منظمتنا التعليمية لم تبرأ من النظر الكلاسي القائم على اسطورة العصر الذهبي . وبذلك ضعف تأثير الاتجاه الى الابتداع ، وغلب عليه الاتجاه الى الاتباع . وظل الأدب في عرف المعلمين والمتعلمين على السواء ، ادب لغة لا أدب متلاغين . وأضحى القول بتكافؤ الفرصة في التعليم صرخة في واد من ناحية الفنان الاديبي ، لأن هذه الفرصة قلما تتاح للتلاميذ والطلاب ، فهم يعكفون اولاً واخيراً على تراث الأدب الرسمي ، يحفظون محتارته ويتأثرون بشواهدهم ويتبعون سير صانعيه ومحترفيه ، ويستخلصون منه احكاماً تقوم كلها على المناسبة والمشاكلة بين الاجزاء ، يقفون عندها لا يستشفون ما وراءها ، وقصاراهم ان يصفوها من الخارج . ولهذا آثاره التي لا تمحي ، على مداركهم وقدراتهم على الابانة ، لأنها تحدد لهم القوالب والصيغ والصور ، كما انها ترسم لهم منهجهم الذي لا منهج لهم سواه في العبارة اللغوية . ولم تقف منظمتنا التعليمية عند هذا الحد في تقييد الفنان وتكبييل القرائح المعبرة ، بالقيود . ولكنها آثرت خطة تعسفية لا تقل خطراً عن خطتها في تلقين الادب الرسمي ، متجاهلة ما يعرفه التربويون من ان الاحداث ينزعون نزوعاً طبيعياً فطرياً الى الابداع ، يساعدهم على ذلك انهم لما يقفوا بعد في إسار الشعور والتفكير التقليديين . فأين هذا مما نحن فيه !... ومعلمو اللغة العربية وآدابها هم الذين يتخيرون صور التعبير للأحداث ، ويعينون لهم الموضوع الذي يطرقون ، ولا يفسحون صدورهم لموضوعات اخرى يختارها الناسون بانفسهم .

ثم يتوسعون في خطتهم في قسمون الموضوع تقسماً تعسفياً يصدر عن العقل ولا يصدر عن الوجدان ، ويحددون عناصر هذا الموضوع تجديداً آلياً ؛ وإذا تركوا للتلاميذ شيئاً ، فهم إنما يتركون لهم استحداث الروابط بين هذه العناصر ... وناهيك بما يبدو من إعجابهم بشواهد الادب الرسمي .

وأثرت هذه الكلاسيكية الجديدة ، في الانشاء والتعليم ، على صميم الحركة الرومانسية نفسها ، فان الابداء الرومانسيين ، بعد ان اتصلوا بالآداب الاوربية وما تنطوي عليه من قيم ، وبعد ان افادوا من الدراسات الاسطيقية والنقدية ، جأروا بالدعوة الى تجديد الادب العربي في القوالب والموضوعات جميعاً . ولكنهم عندما ارادوا التطبيق ، وجدوا ان ثمة قيوداً تحول بينهم وبين ما يريدون . . فرأينا النزوع الى استحداث انواع جديدة لم يألفها الأدب الرسمي . . سمعنا عن وجوب ابتكار قوالب جديدة تُصَب فيها القصيدة العربية ، وسمعنا عن الموسيقى الشعرية ودلالاتها الاصيلية في التعبير عن وجدان الشاعر ، وسمعنا عن التحرر من القافية وقرض الشعر المرسل ، وسمعنا عن تكثير القوافي في القصيدة الواحدة ، وسمعنا عن الملحمة العربية وعن الدراما الشعرية العربية ، وسمعنا عن القصة المرسلة والدراما النثرية الاجتماعية . . ثم نظرنا في صدى هذا الذي سمعناه ، فاذا القصيدة العربية على حالها ، وإذا بمحاولات الشعر المرسل تبوء بالفشل ، وإذا بالموسيقى الشعرية كقوالب الأجر لا دلالة لها إلا التشكيل والصياغة ، وهي لا تتغير بتغير العواطف ، بل إنها تحتفظ بحالة واحدة في العمل الفني الذي يحكي عواطف مختلفة او معقدة . وإذا المسرحية الشعرية لا تزال مجموعة من الفصائد الغنائية ، واذا الملحمة العربية ، في اللغة الرسمية لما تخلق بعد ، وإذا قصصنا ودراماتنا في النثر محدودة الخيال قليلة الفاعلية في المجتمع ؛ والجيد منها منقول أو مقتبس عن لغات اخرى وبيئات اخرى . وما يبدو منها اصيلاً ، او شبيهاً بالأصيل ، قليل جداً بالنسبة إلى مجموع الانتاج في الأدب الرسمي ، وهو يشير إلى بوادر خطوة جديدة في التطور لما تكمل حر كتبها وتنتضح معالمها .

اما النزعة الطبيعية وما تنطوي عليه من الضيق بالكلاسية ، والاحتفال بالصور والمشاهد خارج النفس ومحاولة استجلائها واستشفافها ، فهي ثورة على الكلاسيكية الجديدة ، مسارية للرومانسية او متفرعة عنها . ولها في أدبنا العربي الحديث شواهد . ولكن المتأمل في هذه النزعة يرى انها وقفت عند

خطوتها الاولى من الالحاح عن الطبيعة ومجرد الرغبة في تصويرها وانما اتخذت الرمز غير الفني وسيلتها الى ذلك التصوير، فاختارت بعض الملامح البارزة للدلالة على هذه الطبيعة. واكتفت بجمالة الجرة والساقية والبهيمة وما اليها عند التحدث عن الريف. كما اكتفت بالرمال والكثبان والابل وامثالها في الاشارة الى البداوة الضاربة على حواف الأودية الخضراء؛ وكأنا قلت هذه وتلك من الحيوانات النابضة الشاعرة. وإذا التفت اليها متفنن أو شاعر، فهو إنما يلتفت اليها كعنصر من العناصر التي تؤلف مهاد الصورة او خلفيتها، حتى ليخيل اليك ان المصور لا يعيش في الصورة بحيث يسبغ عليها وجدانه، بل ولا يعيش معها، حتى جاءت آثاره ادنى إلى الرموز الرياضية أو العلامات التجارية أو الرسوم التي يتبادها الناس في مناسبات الاعياد. والدلالة الاجتماعية على فشل هذه الطبيعية هي بعينها الدلالة على قصور الحركة الرومانسية باكملها؛ وهي ان الوعي الديموقراطي كان في ناحية، ومنظمات التعليم ومؤهلات التفنن كانت في ناحية اخرى، لأن المجتمع لما يزل خاضعاً للحكومة المطلقة والطبقة الادارية المصطنعة. ومن ثم كان الاصرار على تغليب الادب الرسمي بتقاليده وقوالبه.

انقسم الادب الرسمي إذن إلى شعبتين: اولاهما واخطرهما الشعب الكلاسيكية الجديدة، ولا تزال نامية مؤثرة فعالة. وثانيتها الشعب الرومانسية وما تبعها من الدعوة إلى الطبيعية، وهي التي تجاهد سلفية التراث، وتحاول أن تتحسس طريقها في تهيب بين المعلمين وفي جنبات المنظمات التعليمية. وكان منطلق الحياة يقتضي أن يتم النصر للرومانسية وإن يتبع ذلك نصر آخر، بعقد اللواء للاجتماعية والواقعية.. فهل ياترى فشلت الحياة؟.. نحن لا نريد أن نعصمها من الفشل، وهي دائمة التجربة... ولكن الذي نريد أن نقوله هو أن نعمل على بصر بالطريق الصحيح للتطور الادبي، وأن نعاونها على السير، وأن نقبل عثراتها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وليس هذا بالامر العسير، فقد انتهى الزمن الذي كان التفنن الادبي فيه يعد إلهاماً فجائياً شاذاً ينزل على أفراد معينين، وأصبح عملاً نفسياً اجتماعياً يمكن تتبعه ورصده بل وتحويله أيضاً. والسبيل إلى ذلك لا تكون إلا بالتخفيف من اسطورة العصر الذهبي وعدم الاقتصار على مأثور الادب الرسمي ولقاح الادب العربي.

وإذا كان الدارسون للتفنن والأسس التي يقوم عليها قد

رغبوا عن علم النفس الفردي، وأصبحوا يقولون بقيام هذا التفنن على التكامل الاجتماعي، بعد أن صح عندهم ان الاطار هو الذي يشكل الأحاسيس والمدركات والتجارب، بل ويكاد يحدد نوع النبوغ عند الفرد، فقد أصبح لزاماً علينا ألا نزوق نهضتنا الأدبية بهذا التثبث العنيد باطار الادب الرسمي؛ وألا تقتصر في تطويره على ما يأتينا من خارج ذواتنا وبيئاتنا عبر البحار؛ فان ذلك يحولنا الى ذوات أخرى تعيش في بيئات أخرى، كما حدث إبان النهضة بالفعل، من انقسام الادباء المجددين بالامس، المحافظين اليوم، الى سكسونيين ولاتينيين! يجب علينا ان نجعل الاطار متصلاً بالحياة متفاعلاً معها؛ فنعترف بتراث الادب الشعبي ونضعه في مكانه الصحيح من حياة الفرد والامة. ولسنا نقصد بذلك ان ننسخ به إطار الادب الرسمي وإطار الادب العربي، ولكن المعنى المراد ان يأخذ مكانه الطبيعي وسط هذين الاطارين.

الادب الشعبي الذي نقصده ليس أدباً جماعياً لا غير، ولكنه ادب فردي أيضاً. وقد أصبح الاطار المستمد منه اكثر فاعلية من إطار الادب الرسمي، بتعدد الوسائط التي تعمل على تسوية العقلية العامة والذوق العام، والتي تنزع الى الديموقراطية الادبية المنشودة في التعبير. ومن دلائل الخير ان الذكاء البشري استنبط وسائط أخرى تعتمد على الصورة المباشرة والكلمة المفقوطة - كما بينا في مقالنا السابق - التي لا يحتاج المفيد منها إلى تعلم الكتابة والقراءة، فأصبح المجتمع كله، أميين وغير أميين، يتذوق الفنون بعامة والفن القولي بخاصة، ويستمتع بالجمال المعبر الذي كان في عرف الطبقات الرسمية الحاكمة، وقفاً على الكاتبين والقارئين فحسب.

إذا فعلنا هذا، وأغلب الظن ان الحياة سترغمنا على فعله، فلن يمضي طويل وقت بالقياس إلى عمر البشرية، حتى تزول الفوارق التي أقامها الوعي الطبقي وحتى يندمج الاديان: الرسمي والشعبي، وهو ما نتطلع اليه في تدعيم تطورنا الديموقراطي وتأصيله في النفوس، وبناء صرحه على أساس وجداني. وهكذا نجلو نظراً الادبي ونوسع من مجاله بحيث يشمل الامة العربية كلها، ونصحح كثيراً من الاحكام الخاطئة التي راجت عنه في الشرق والغرب ونزد اليه اعترافه ونبرته من أسطورة العصر الذهبي ونوقظه من خدر الاحلام وندفعه بفاعلية التفنن الى مكانه اللائق به في موكب الحياة الانسانية المتقدم أبداً إلى الامام

عبد الحميد يونس
القاهرة